المكون السردي
في رواية راس المحنة لعزالدين جلاوجي

الأستاذ : سامي الوافي
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة (الجزائر)

ملخص:

يتناول هذا المقال بالتحليل المكون السردي في رواية "راس المحنة" للكاتب الجزائري عزالدين جلاوجي، محاولين أن نأخذ في دراستنا هذه بعين الاعتبار جملة ملفوظات الحالة والتحول التي تميز شخصياتها، من خلال ربط الأدوار التي تؤديها أثناء إجراء عملية التحويل بالبرامج السردية

Résumé:

Cet article entreprend l'étude analytique du constituant narratif en étudiant le roman (RAS AL MIHNA) d'AZZEDINE DJELAOUDJI tout en tenant compte de l'ensemble des énoncés d'état et du faire qui caractérisent ses personnages en reliant les rôles qui l'entreprennent durant la transformation aux programmes narratifs.

تبدو رواية راس المحنة للروائي الجزائري عزالدين جلاوجي للوهلة الأولى مبنية بطريقة تهدف إلى إثارة الالتباس لدى القارئ بتأجيج نار الصراع بداخله لدرجة تنتقل فيها عدوى القلق وافتقاد الأجوبة من الخارج إلى الداخل لتشمل عددا من شخصياتها المركزية، ليأخذنا تناول المكون السردي فيها بالتحليل إلى عملية تشريح للبنيات العاملية آخذين بعين الاعتبار جملة من الحالات والتحويلات التي تميز شخوصها من خلال الأدوار التي تؤديها أثناء إجراء التحويل، وذلك لقيام "السردية على مجموعة من الملفوظات المتتابعة والموظِّفة المسندات prédicat فيها لتُشَاكِلَ _ألسنيا_ جملة من التصرفات الهادفة إلى تحقيق مشروع"[1] مُتبنى من قبل شخصياتها المركزية، والحديث عن تجليات البنى العاملية هنا سيكون مقتصرا على البنى الشاملة، لذا سنختار الذوات الكبرى والمهيمنة في النص الروائي ومن ثم ربطها بالبرامج السردية نظرا لتعددها وتنوع رغباتها، لأن كل حكاية تحمل بين طيَّاتها حُبكة تُشكِّلُ ذروة الصراع في علاقات شخصياتها بعضها ببعض.

وضبط علاقة الأحداث بالشخصيات في الرواية سيساعدنا على تحديد أطراف الصراع و"الكشف عن المنطق العاملي يستدعي دراسة العلاقات التي تنتظم وفق إستراتيجية سردية محددة، ووفق نظام يستدعي التحكُّمَ فيه بدقة"[2] لكي نستطيع ضبط المكون السردي على النحو الآتي:

1- المكون السردي في رواية راس المحنة:

الناظر إلى متن الرواية يجدها موزعة على مدخل وستة فصول تحمل العناوين الآتية:

المدخل عنون بشرفة أولى والفصل الأول عنون بالخروج من التابوت والثاني بالبحث عن العش والثالث بقراصنة الأحلام والرابع تحت عنوان الحب وعفونة الرصاص والخامس بالخروج من التابوت وصولا عند الفصل الأخير المعنون بشرفة أخيرة، حيث توحي هذه العناوين بأحداث الرواية وكأنها مسرحية يقوم الخطاب بعرضها، ليتبين أن الحكاية تتمحور حول مغامرة تبدأ بتحول الشخصية المركزية من فاعل إلى حالم يحلم بمدينة فاضلة لم تتحقق له إلاَّ بطريقة واحدة هي العزلة والرجوع بالذاكرة إلى الوراء.

يبدأ المدخل المعنون بشرفة أولى بمتتالية من الملفوظات الشعرية السردية لتفتح بابا للأمل وتعكس حالة الانحطاط واللامسؤولية التي تتخبَّط فيها حارة الحفرة، كقول الراوي: "أنَّى للحب أن يُشرق وسحائب الدم ما زالت تَهدُر حوله...؟"[3]، فهذه المقولة وردت في صيغة تساؤل له دلالة رمزية مُكثفة تحمل بين طيَّاتها رسالة واضحة توحي بشيئين ،الأول يخصُّ الوضع المتردي في حارة الحفرة والاستغلال الذي يعاني منه سكانها بسبب السلطة القهرية المفروضة عليهم، والثاني يخصُّ الأمل المنشود والخلاص الذي سيكون من عائلة (صالح الرصاصة) والذي سيقلب الموازين ويُرجع الوضع لحالة التوازن، حيث يقول الراوي مبرزا دور هذا المنقذ: "لا تخافي يـ(الجازية)...يا أمل الجميع...الديناغول ليس إلاَّ هيكلا خاويا عمَّا قليل سَيَخِرُّ فتذروه الرياح...غدا يـ(الجازية) ستشرقين بلون القوزح على حارة الحفرة لتغدوا ربوة ذات قرار ومكين..."[4]، إذ بظهور (الجازية) التي تمثل رمز الأمل والخلاص في آخر الرواية -بموقفها الرافض للاستغلال والقهر- تأخذ الأحداث مجراها في اتجاه خلق التوازن الذي يبعث على الأمل والحياة.

أما فيما يخص الفصل الأول المعنون بالخروج من التابوت فهو عبارة

عن متتالية من الأحداث تبدأ من القرية حيث يسكن (صالح الرصاصة) – والذي يُعدُّ شخصية مركزية– وعائلته المتكونة من زوجته (عرجونة بنت اعمر) وابنه (عبد الرحيم) وابنته (الجازية)، وتمثـل القرية هنا بالنسبة لشخصيــة (صالح الرصاصة) دلالة رمزية، و"الشخصية الرئيسية فيــه تبحث عــن اتصال متكامل بعــالم منسجم مع نفســه"[5] هذا العالم هو قريته وبالضبط بيته القديم الذي نشأ فيه والذي يحمل بدوره ذكريات جميلة عاشها بحُلوها ومُرِّها، فحرب التحرير التي عاشها وعاصرها وهو شاب بكل مراحلها تركت فيه أثرا جِدَّ عميق في نفسه لما تحمله من هموم تعلقت بذكريات الماضي ورهانات الحاضر، حيث يرى في المدينة و"أحداثها ما يتقارب والتراكمات التاريخية التي غالبا ما تسيطر بكابوسها على فيض الذاكرة"[6]، وبهذا بقيت شخصية (صالح الرصاصة) بمواقفها الرافضة للواقع المتردي في ركنين أساسيين من حياته، الماضي المرتبط بالريف وما يمثله من صفاء ونقاء والحاضر المرتبط بالمدينة وما يمثله من مراوغة وتعقيد، حيث يقول وهو نافِرٌ من المدينة حتى عند سماع اسمها: "وأحسست بالقشعريرة تَهُزُّ فرائصي أكاد أفتتع...كل شيء ينهار دفعة واحدة...تُطلُّ عليَّ الخيانة مُبرقعة...تبتسم"[7]، ونجد لردِّه هذا دلالة واضحة على رضاه بالريف وكرهه للمدينة، كونها تمثل شخصية مُحبة للماضي وتحن إليه بعودتها الدائمة له عن طريق التداعيات قصد إحداث مقارنة بين المرحلتين، ليصبح بالنسبة إليه "الماضي القائم بمآسيه وآلامه أحسن من الحاضر ومنجزاته"[8].

لتتطور أحداث الرواية في بقية الفصول متأرجحة بين حالة التوازن واللاتوازن، حيث عمــد السارد إلى إعطاء الكلمة لكافة شخصيات الرواية

بتنوعها واختلافها كُلٌّ حسب فاعليته في الحـــدث، وهـــذا "الرهان على التعدد في الشخصيات يسعى إلى إبـــراز صراع بين رؤيتين للحياة"[9]، الرؤية الأولى ممثلة في شخصيات حارة الحفرة المتواضعة والتي تحمل شخصيات حالمة لها طموحاتها وتراهن على الواقع لتحقق لنفسها موقعا في عالم اليوتوبيا، أما الرؤية الثانية فهي تمثل السلطة القهرية التي تسعى للحفاظ على مكانتها بكل السبل والممثلة هنا في شخصية مدير المشفى مثال الإدارة المتعفنة ورئيس البلدية (أمحمد أملمد) ومحافظ الشرطة (السعيد) ... ومن خلال هاتين الرؤيتين المتعارضتين "تتشكل داخـــل النص ملامح الشخصيات وتتضح بنياتها"[10]، وانطلاقا من إحدى هاتين الرؤيتين تصبح شخصيات الرواية فاعلة، فنجد مثلا شخصية (صالح الرصاصة) وابنته (الجازية) وخطيبها (ذياب) الصحفي وشخصية (منير) المثقف شخصيات "مُغَامِرَة تَتُوق إلى تحقيق عوالم خاصة بها، ولذلك يحوز كل منها نصيبه من الحلم ويتفرد بطريقته الفردية للوصول إليه"[11].

والملاحظ على البرنامج السردي الرئيسي في رواية راس المحنة أنه يقدم شخصيات مترابطة فيما بينها بعلاقة الطموح والمغامرة، باعتبارها تدور في فلك البطل (صالح الرصاصة) وابنته (الجازية)، في حين نجد شخصيات ضدية كشخصية (امحمد املمد) ومدير المشفى والتي تجسد ذوات صراع مع الشخصيات الخَيِّرة حول المنفعة والتسلط، وتُعدُّ حاجزا أمام تطلعات سكان حارة الحفرة رغبة في إذلالهم واستغلالهم والسيطرة عليهم بقرارات سلطوية جائرة.

والملاحظ هنا أن شخصية (صالح الرصاصة) الرئيسية "تَصدُر عن رؤية صارمـــة ومنسجمة مـــع نفسها"[12]، كونها تمثل الخيط الذي يربط بين جميع

أحداث الرواية وبقية شخوصها، حيث يقول وكله صدق: "خائفون مني ؟ تريدون إبعادي عن أسيادكم...؟ حياتكم كلها كذب على الشعب...وعلى الله...وعلى نفوسكم...وعلى التاريخ...وحتى على أسيادكم...خافوا الله..."[13]، ونرى هنا امتلاك (صالح الرصاصة) شجاعة كبيرة هي بمثابة أهلية مكنته من كشف نفاق مدير المشفى، غير أن من "يمتلك هذه الشجاعة الفائقة لابد له أن يدفع ثمن شجاعته"[14]، وهذا بالفعل ما حصل فقد فَقَدَ وظيفته ومسكنه بعد طرده قهرا من عمله واتهامه بالجنون، حيث يقول وكله استياء: "المدينة كالعاهرة لا تتزوج إلاَّ لتجعل من زوجها مِشجَبا تُعَلِّقُ عليه خيباتها...خرجت من القرية...ومن المشفى...وهاهم أخيرا يطردونني من البيت لأنه ملك للمشفى..."[15]، ونجد سبب التهميش الذي وقع عليه محاولته خلق عالم مثالي في مستنقع القذارة، حيث أراد أن يصل مرتبة أمجاد رجالات الماضي لكنه أخفق في الأخير.

إذن فذات (صالح الرصاصة) تمثل ذاك الإنسان المرتبط بأطره الاجتماعية كونه بقي "رهين العجز والاستلاب، إن كان سينجو بجلده من الزيف واختراق الضمير"[16]، إذ مع رحيل عائلة (صالح الرصاصة) إلى المدينة تنقلب حالة التوازن نتيجة لضغوطات قوية سُلِّطت عليهم من طرف مدير المشفى من جهة ورئيس البلدية (امحمد املمد) من جهة ثانية كونهما يمثلان قوة جاءت لضرب هذا التوازن من أجل خلق توترات له مرة عند فصله من عمله وطرده من بيته واتهامه بالجنون، ومرة أخرى أثناء استفزازات (امحمد املمد) له ولعائلته، ليَحِلَّ بذلك اليأس وفقدان التوازن المعبر عنه بالهروب من المدينة والاحتماء بالشهداء في مقابرهم، حيث يقول: "والحلُّ؟ الهروب، الهروب...كل شيء يصرخ في أذني...أهرب يا

(صالح)...يا (صالح) المغبون...يا (صالح) المجنون...أهرب بنفسك...أنت ضعيف...هؤلاء فسَّدوا وأفسدوا وفَسدَت عليهم...أهرب يا (صالح)...أهرب..."[17].

ومع ظهور صديقيه (الربيع) و(السعيد) في بداية الرواية ودعوتهم له بضرورة التغير نحو الأفضل انقلبت الأحداث لتأخذ مجرى متأرجحا بين التوازن والاضطراب ليعطينا الراوي مقطعا على لسان (السعيد) صديق (صالح الرصاصة) والذي يُعدُّ بمثابة "مشهد يُحي الماضي ويمثل التراث في حاضر متغير إلى الحركية وإلى التطور المستمر"[18]، ليبدأ حوارهما بلحظة استرجاع حيث يتذكر (صالح الرصاصة) ماضيه في القرية ليُعيد سرده على صديقيه (الربيع) و(السعيد) آخذا منه بعض اللحظات المشرقة من حياته ليرتد إلى حاضره / حاضر النفي والاغتراب والذي بسببه آثَر حياة الريف والبساطة ما دفع صديقيه إلى ضرورة إخراجه من قوقعته، حيث يقول (السعيد) مخاطبا إياه: "يا (صالح) الناس كلهم تغيَّروا...الناس كلهم تبدَّلوا...الزمان الذي فات ولَّى إلى غير رجعة...والأفكار التي كانت زمن الثورة زالت...وأنت أنت...حالتك تُفجع...لم تتغير ولم تتبدل..."[19]، وهذا الموقف يدل على رجعية (صالح الرصاصة) هنا والذي يمثل صوت الماضي الذي حرِص المجتمع على إبقائه، لكنه صوت ميزته القلق والاضطراب بسبب "ضربات الدهر المتتالية وهو غريق في دهشته وحيرته لا يُدرك مُضِي الزمن ولا يدري ما الحال ولا يعلم بتغير الأمور وما أحدثه الدهر بعد عهده"[20]، لينتقل إلى المدينة ويستقــر بهــا، عائدا إلى نقطة استقرار مؤقتة تبعث على الأمل والحياة بعد مساعدة صديقيه له في حصوله على وظيفة وبيت يقيم فيه، حيث يقول واصفا حاله بعد انتقاله إلى المدينة: "بعد أيام

أصبحت عاملا بالمشفى بفضل (الربيع) و(السعيد)...لما شكرتهما على المجهود الذي بذلاه غَضِبا وقالا هذا واجب إنه إخلاص الإخوان لبعضهم البعض"[21]، إذ مع عمله الجديد كحارس في المشفى يبدأ حياة جديدة خاصة بعد تأقلمه مع الوضع في المدينة وتفانيه في العمل لتصبح حالته هذه تُمثل "هذا الانتقال من حال الطبيعة إلى حال المدينة [وهو الذي] أوجد في الإنسان تبدلا ملحوظا، إذ حلَّ في سلوكه العدل مَحَلَّ الوهم الفطري"[22]، لأن ما كان يعيشه في الريف مبني على الوهم والذكرى، ليكون صديقاه (الربيع) و(السعيد) سببا مباشرا في التنامي التصاعدي الذي بلغ ذروته باتخاذ (صالح الرصاصة) قراره الحاسم بعد مشورة زوجته (عرجونة بنت اعمر)، والذي هو في الواقع محصلة لاقتناعه بضرورة إحداث التغيير، حيث يقول: "كانا معا يُقلِّبان فِيَّ بصريهما وفيهما إلحاح بقبول الفكرة...ورغم كوني كنت أخاف المدينة...كنت أدرك أنهما ما أرادا لي إلاَّ الخير...أشفقا عليَّ وعلى حالي وفقري...وأردت أن أقول لا للمدينة...فقلت نعم..."[23]، والملاحظ على هذه اللحظة السردية أنها تُبرز اكتمال كفاءة شخصية (صالح الرصاصة) واستعدادها لتحقيق رغبة صديقيه (السعيد) و(الربيع) وزوجته (عرجونة بنت اعمر).

ورغم كراهيته للمدينة نجده يوافق على فكرة الانتقال إليها والرحيل من القرية التي تمثل لديه الكثير كونها رمزا، ولتكون المدينة هنا نقطة مُحَرِّكة للأحداث، لتركيز السارد على إستراتيجية الفعل التحويلي الآيل إلى تحريك الشخصيات هنا وفق برنامج سردي خاص، لنصل بذلك إلى أن هذه الرواية قد بدأت بحالة من التوازن مع انتقال الشخصية الرئيسية وعائلتها إلى المدينة واستقرارهم بها خاصة بعد تأقلمها مع عملها الجديد في المشفى والتي ترى

فيها خدمة للإنسانية وإرضاء لضميرها الحي، كقولها وكلها قناعة: "خدمت خمسة أشهر أجيء في الصباح قبل الوقت بنصف ساعة...أساعد في التنظيف وسقي الأشجار...وربما زيارة المرضى...وأزيد العشية نصف ساعة أخرى أقوم بنفس المهمة..."[24]، وهذا الموقف دليل واضح على طيبة شخصيته وعفويتها والتي بسببها ستسوء حالته وتتحول من حالة التوازن إلى حالة الاضطراب خاصة بعد استفزازات المدير المتكررة وتأليبه الكُلَّ عليه، لتكون بذلك "شخصية تأخذ أبعادا إنسانية وتاريخية وعصرية بإمساكها بجوهر مُحدِّدات الهوِّيات والاختلافات والصراعات"[25]، وتأسيسا على هذا نلاحظ توتر العلاقة بين مدير المشفى و(صالح الرصاصة) – خصوصا بعد فصله من عمله وطرده من بيته– قد فتحت المجال كثيرا لاتساع دائرة الأحداث وتطورها خاصة عند إقامته في حارة الحفرة واتصاله بسكانها، ليكون انفصاله الأول قد حقَّق له اتصالا دائما في هذه الحارة، ولتبدأ الأحداث في التنامي تدريجيا انطلاقا منها.

يبدأ الوضع المضطرب مع (صالح الرصاصة) وعائلته في العودة إلى مرحلة التوازن مع استقراره في حارة الحفرة ومُجَاورة بيت (منير) وجدَّته (علجية)، ليتواصل معهما خاصة مع أُمَّا (علجية) التي يُكنُّ لها الحب والاحترام.

يقول الراوي واصفا موقف لقائه بها بحضور (منير): "سي (صالح)...وليدي العزيز.

-أُمَّا (علجية)...أُمَّا العزيزة.

وارتمى في أحضانها كالرضيع الفرع الجوعان ...

وقفتُ مُندهشا أرقب المشهد...أعيد إيمان بالأسباب والمقدمات والنتائج...أية

صدفة هذه؟ وما معنى هذا العناق؟"[26].

غير أن هذا التوازن سرعان ما ينهار مع ظهور شخصية مُضادة لــ(صالح الرصاصة) بصفة خاصة ولحارة الحفرة بصفة عامة، وهي شخصية (امحمد املمد) رئيس البلدية ابن الحركي، حيث يقول وكلُّه كره وحقد عن (صالح الرصاصة) المجاهد ابن الشهيد: "مازال هو غُصَّة في القلب...لابد أن يدفع الثمن...وكيف يدفعه؟ بإزهاق روحه أم بالموت البطيء؟"[27] وكمسؤول هنا نجد أن ارتباط صراعه بالانتقام من جهة وبالسلطة والمال من جهة قد خلق امتزاجا أدى لنشوء رغبة لديه في إيذاء سكان حارة الحفرة الضعفاء بامتلاكه أسباب السيطرة، كما نجدها شخصية تبطن ما لا تظهر، لذلك فهي لا تتورع في إطار سعيها للانتقام عن فرض قهرها وسيطرتها على من لا حول لهم ولا قوة، لتكون شخصية (صالح الرصاصة) إحداها.

فظهور الشخصية الضدية (امحمد املمد) كذات معارضة في ساحة الأحداث أدت إلى قلب حالة التوازن في حارة الحفرة وبخاصة عائلة (صالح الرصاصة)، لتكون حالة الاضطراب قد أثَّرت سلبا على شخصية (صالح الرصاصة) في حدِّ ذاته، لتُصبح بذلك ذات حالة ميزتها القهر والانحطاط والهروب من الواقع على مستوى تكوينها النفسي والفكري وحتى الجسدي، ولتنعكس هذه الحالة وتصبح سلبا مركبا على علاقاته مع الآخر حتى مع عائلته وأقرب الناس إليه، خصوصا مع ظهور شخصيته وهي بين القوة والضعف، بين الانتصار والهزيمة وربما تكون هذه "الازدواجية نابعة من تشظِّي الشخصية بين الحلم / الواقع / الوداعة / السلطة / حياة البساطة"[28]، ولعلَّ هذه الحالة –التي تُشكِّل عمق وعي هذه الشخصية– هي التي جعلتها

تتميز بهذه الانشطارية، لذلك ركَّز البرنامج السردي على لحظات كانت ترتد فيها هذه الشخصية إلى الماضي لتُحاكم الحاضر (الواقع) ولتمسك بأحلامها التي تجسد حالة الخوف وعدم الرضى، كل هذا من أجل "التأرجـــح بين الواقـــع وشروطـــه والواجـــب ومتطلباتـــه والطمـــوح وإغـــراءاته"[29]، ومنه فالإستراتيجية السردية هنا مؤسسة على قناعة السارد القبلية، إذ أن الصراع دائـــر بين ثنائيات: الفقر≠ الغنى / المجتمع ≠ السلطة / المثقف ≠ السلطة، و(امحمد املمد) ومدير المشفى ومحافظ الشرطة يمثلون السلطة التي تعيش حالة توازن مستمر، في حين سكان حارة الحفرة والتي تمثل الرعية (المجتمع) نجدها تعيش حالة لا توازن (اضطراب) بفعل استغلال أطراف معينين لهم بمحاولتهم قلب القوانين لتحقيق ذواتهم، وهذه الوضعية تجعلنا أمام برنامجين سرديين ضديين، الأول ممثل في لجوء السلطة إلى محاولات عديدة لتقوية نفوذها وسيطرتها وإيقاف التمرد والثورة عليها بشتى الطرق، والثاني ممثل في لجوء سكان حارة الحفرة إلى حركة مُضادة قصد تحقيق رغباتهم وهو ما تحقق في آخر الرواية، حيث يقول (منير) مبرزا كره سكان حارة الحفرة لرئيس بلديتهم (امحمد املمد) : "ومن أين أبدأ؟ هل ألحق بـــ(الجازية) في العاصمة؟ أم أنتقل إلى القرية لإعادة أبي (صالح)؟ أم أؤلب الناس ضدَّ (أمحمد أملمد) ... وضدَّ هذا السطو الذي مارسه على عُقولنا؟ أم ...؟ كل شيء من حولي متعفن ..."[30]، واستنادا إلى النحو السردي La Syntaxe Narrative يمكن أن نلخِّص المكون السردي لرواية راس المحنة في الخُطاطة الآتية:

البنية السردية

العالم المضطرب **العالم المتوازن**

الوضعية 1	الوضعية 2	الوضعية3			
-وضع صالح الرصاصة المتردي بعد فصله من العمل.	-إقامته في حارة الحفرة الفقيرة والنائية الموجودة على أطراف المدينة.	-انعزاله عن المجتمع وانفصاله عن عائلته.		-اتصاله بمن يحب أمثال نانا عرجونه منير ...	-حلّ العقدة. -هروبه من المدينة. -استقراره في القرية. -عودة الأمل المنشود إليه في آخر الرواية بعد القضاء على عنصر الفساد أمحمد أملمد.

فمن خلال ضبطنا لأهم المحاور في هذه الرواية وانطلاقا من المخطط أعلاه يمكننا ملاحظة البنية السردية لها من جوانب عدة وهي تُبرز لنا منذ البداية: مواجهة بين طرفين متضادين هما المجتمع ممثلا في (صالح الرصاصة)، (الجازية)، (ذياب)، (منير)...والسلطة ممثلة في مـــدير المشفى ورئيس البلدية (امحمـــد املمد) ومحافظ الشرطة...ليقودنا المخطط إلى ضرورة توضيح طبيعة موضوع القيمة Objet de valeur الذي تتصارع من أجله هذه الذوات من أجل الوصول إلى الموضوع الذي يملكه الفاعل ويريد الفاعل المضاد إبطاله.

ولتوضيح العملية أكثر سنقوم بعرض المنظور الذي تبناه كل طرف في الصراع على حدى:

1-1- منظور المجتمع:

يمثل هذا المنظور سكان حارة الحفرة كشخصية (صالح الرصاصة) الرئيسية هنا في الأحداث، حيث نجدها قد تَبَنَّت موقفا نزيها تجاه الفساد ورموزه، كونها وطنية ومُحبَّة للخير، فأول مهنة مارسها عند انتقاله مباشرة إلى المدينة هي حارس في المشفى، وبالنسبة إليه تُعدُّ مهنة إنسانية ونبيلة تُلائِمُه وتحقق ما يؤمن به، يقول: "وأقنعت نفسي بالأمر الواقع لا بأس يا (صالح)...عامل بالمشفى...حارس في المشفى...وهو رمز صحة هذا الشعب...وصحة هذا الشعب هي صحة هذا الوطن الغالي...وهذا معناه أنني ما خُنتُ وما بدّلتُ...أنا دائما على نفس الدرب الذي سار عليه المُخلصون والأوفياء والشهداء..."[31]، فهذا الموقف يدل على وطنيته وإخلاصه على الرغم من فقره الشديد، فهو لا يستسلم أبدا ويسعى جاهدا إلى التغيير نحو الأفضل ولو على حساب نفسه، لتنقلب عليه الأحوال سلبا وعلى عكس ما

كان يتصور بعد الاستقلال، ليشتغل حارسا في المشفى لكن سرعان ما يطرد من هذا العمل ومن بيته ويرمي به خارج المشفى لا لشيء سوى أنه فعل الخير وتفانى في عمله إرساءً للحق وقيمه التي تربى لأجلها، ليدبر له المدير مكيدة لخوفه على نفسه ومنصبه منه، كما أن (صالح الرصاصة) لم يكن يسكت على ما يراه من غش وفساد، لينتهي به الحال في حارة الحفرة الفقيرة ذائقا فيها كل أنواع الألم والحسرة، حيث يقول متحسرا على ما آل إليه الوضع: "...دوائي الوحيد أن أعيش بعيدا عن هؤلاء الناس...ما عدت أطيق النظر إليهم ما داموا يعيشون في هذه الحياة لابد أن أرحل عنها..."[32]، ليقرر في الأخير هجر المدينة وعائلته والتوجه إلى القرية حيث بيته القديم ليعبر من هناك عن راحته وعدم استسلامه، وهذا الهروب يُنِمُّ على "التجربة النفسية أو الذاتية التي تدل على وجوده شخصا له فذاذة خاصة يعيش الصراع والتمزُّق بقدر ما يعيش الطموح والحلم"[33]، فهو كشخصية رئيسية قد مرَّ من خلال أحداث الرواية بثلاثة أطوار أساسية ارتبطت بحياته الجديدة في المدينة: الطور الأول رفض فيه واقعه الجديد بالكامل ليقع كما ذكرنا سابقا ضحية لهذا الرفض، فيقول مُتحديا مدير المشفى: "إذا نطقت ماذا سأخسر؟ يطردونني من العمل...منصبي يضعونه قلادة في رقابهم..."[34]، وهذا يعدُّ تحديا في ذاته، وفي الطور الثاني نجده قد انقطع عن الواقع وما فيه حتى بيته وأقاربه بهروبه نحو القرية التي فضل الاستقرار فيها وليتأمل من خلالها أحوال العصر الذي بُعث فيه، فيقول مُطمئِنا ابنته (الجازية) وجاره (منير) على أحواله: "لا تخافا عليَّ...أنا هنا سعيد وآمن...لم أعد أثق بالمدينة...أخذت مني كل شيء ولم تعطني شيئا واحدا...اهتما بأُمِّكُمَا (عرجونة) لو كانت مُعافاة لما تخلَّفت عني...لكن الدنيا غدارة"[35]، ليندفع في

الطور الثالث برغبة جامحة وظاهرة للاندماج في عصره هذا بعد أن استوعب الصدمة الأولى التي تعرَّض لها من قبل مدير المشفى، ليُصدَمَ الصدمة الكبيرة مع ظهور شخصية (امحمد املمد) الانتهازية والتي تسعى لقلب توازن شخصية (صالح الرصاصة)، لتمر الأطوار الثلاثة عبر حلقة متكاملة من التحولات، ولنجد صمته وركونه للعزلة نوعا معبرا عن العجز والاستلاب، فتقول (الجازية) واصفة حاله: "ما كان أبي بمثل هذا الانطواء على الماضي وتمجيده في كل مناسبة...كنت أراه دائما شابا مُتجددا بقدر ما يرتبط بالماضي يعيش الحاضر ويتفتح على المستقبل...فما الذي حلَّ به هذه المرَّة؟ وصل به الأمر إلى مُنتهاه...كبا فرسه ولم يستطع أن يواصل المسير ولا التحدي...ها هو يَفِرُّ بنفسه"[36]، وهذا المشهد يكشف عن التحول العميق في موقف البطل (صالح الرصاصة) وبخاصة حينما يدفع به السارد إلى الفرار بعد جملة من التجارب التي أعادت صوغ وعيه بالعصر الذي يحيا فيه، وقَلبت ما كان يحياه رأسا على عقب، هذا التحول الذي تحقق له بعد اكتشاف زيف المدينة وهذه الأسباب استطاعت أن "تُمكِّنه من إعادة تغيير شاملة بموقفه"[37]، كونها شخصية لا تستطيع العيش سوى في الحُلم والماضي وبمجرد استيقاظها وعودتها إلى الواقع تكتشف علاقاتها الصدامية مع الآخر، لتُقرر الهروب من العالم المُتحضِّر (المدينة) رافضة إياه بحثا عن عالم مثالي يحقق له اتزانه والذي لا يتحقق إلاَّ في قريته رمز النقاء، لأنها بالنسبة إليه تمثل عالما تتحرك فيه الأشياء دون سيطرة أو عقد لقوله مخاطبا ابنته (الجازية): "هنا في القرية لا يخشى أحدنا إلاَّ ربه ... كنت أُنقِّي الأشجار من الأغصان اليابسة لا مكان للميت في الحياة"[38].

فهذا التحول في حياة (صالح الرصاصة) نتج عن تجربة واقعية عاشها

ومن خلالها أدرك بوعي وضعه الهامشي في مثل هذا الوسط المتعفن (المدينة)،حيث فضَّل العزلة ومُفارقة الأهل بسبب عقدة الخيبة التي أصابته وفي هذه العقدة "تفقــد الشخصية أفكارها الجميلة وتمــوت في اليــأس"[39]، لتكون حالة الانفصال هذه دلالة على الرفض وعدم الاستسلام، كما تُعدُّ بمثابة إيعاز أَسهَمَ كثيرا في خلق حركية زمانية ومكانية من خلال ثنائيات: (الريف/المدينة) و (الآن"الواقع"/القبل"الماضي")، ليكشف لنا الراوي "وجود تعارض بين الذات والواقع، بين الماضي والحاضر"[40]، وهذا ما توحي به بنية الرواية المكانية والزمانية، ذلك لما تُشكِّلُه من ثنائيات ضدِّية، لأن الذات هنا تجسد صوت الماضي والواقع يجسد الحاضر بتناقضاته.

1-2- منظور السلطة:

ويُمثل هذا المنظور كل من مدير المشفى الذي يُجسد هنا الإدارة المُتعفنة، و(امحمد املمد) رئيس البلدية الفاسد و(السعيد) مُحافظ الشرطة المرتشي...فالأول لم يحظَ سوى بتسمية عامة وهذا معناه "أن الشخصيات الفردية تذوب في الأنماط الإنسانية"[41]، ليُصبح عينة من المجتمع دالة على الفساد الإداري وسوء التسيير، ومن خلال مشاهد عديدة وشهادات في هذه الرواية نصل إلى حقيقة المدير المــُرَّة، حيث يقول (صالح الرصاصة) واصفا إياه بكل موضوعية وسخرية: "ومديرنا هذا وطني حقّا لما عينوه كان كسلك الحديد...كأنه مستورد من إثيوبيا...البذلة الرمادية وحدها تمشي...اليوم صار بضخامة ثور يكاد يسقط للخلف...سرواله القديم لا يسع إصبعه..."[42]، فهذا المقطع يحمل شهادة حية واضحة لها دلالة على (قبل/بعد) مدير المشفى، أي كيــف كــان وكيف أصبــح، وبسبب تهاونه في تسيير

المشفى وقع في صدام مع (صالح الرصاصة) الصارم في عمله، ليُمثِّلَ بالنسبة له حجر عثرة بات يُهدِّده ويهدد مصالحه، ليقوم في الأخير بتلفيق الاتهامات له وطرده، يقول (صالح الرصاصة) واصفا حاله: "واكتشفت أن السيد المدير أراد أن يقول لي لا تتدخل في شؤون غيرك...أحضر عند الثامنة بالضبط وانصرف عند الخامسة...بعد الخامسة لا أحب أن أرى خِلقتك...فهمت لست وطنيا أكثر من الناس..."[43]، لتكون إساءتُه المعنوية هذه قد أصابت (صالح الرصاصة) في الصميم –في وقت تَعلَّقت نفسه بالمشفى من خلال عمله– وسببا في انزوائه في بيته القديم لوحده فارا من المدينة وفسادها.

كما يكشف لنا (صالح الرصاصة) حقيقة مدير المشفى بقوله مستهزئا: "مديرنا إنسان وطني ضرب الرقم القياسي في احترام وقت عمله...يدخل لمكتبه بعد العاشرة يتصفح الجرائد التي تُشترى على حساب المشفى...يوقع الوثائق...يَطَّلِعُ على المراسلات...يرشف قهوة...يحتضن السكرتيرة...عند الحادية عشر يخرُج ولا يعود حتى الغد"[44]، فهذا واحد من الأسباب التي أرَّقت حياة (صالح الرصاصة) وأزَّمتها، لأنه يرى كافة أفراد الطبقة التي ينتمي إليها قد اكتوت بنار أمثال هذا المدير الفاسد كمشاهدته لمئات عُلب الدواء مرمية في القمامة تأكلها النيران والمرضى في المشفى يموتون لعدم حصولهم على قرص الدواء، حيث يقول: " شممتُ رائحة الدخان، رَفعتُ عيني شاهدتُ شبح الدخان يتهادى مُتعاليا في تكاسل على جنبات الوادي... دفعني الفضول...هبطتُ الوادي...؟ وكانت المفاجأة الصاعقة...مئات العُلب ملآنة دواء مُكومة ومحروقة...كادت النار تقضي عليها...قلَّبت بعضها هذا الدواء كلُّه غيرُ صالح للاستعمال..."[45]، وهذا ما زاد في آلام شخصية

(صالح الرصاصة) وحُرقتها إذ بينما يرى عامة الناس كما ذكرنا سابقا مُحتاجون لقرص الدواء الذي يُرمى في المزابل بدل إعطاءهم إياه، في المقابل يرى الطبقة الأخرى المغمورة قد وجدت نفسها بين عشية وضحاها ذات مكانة هامة ويحسب لها ألف حساب ولهذا السبب فـــ "موقف البطل سيكون موقف السلبية والانهيار واليأس والسخط على الواقع وعلى السلطة"[46].

أمَّا شخصية (امحمد املمد) فنجدها تعكس الوجه المظلم للمسؤول الأول في البلدية والتي تدخل في نطاقها حارة الحفرة، فهي شخصية نافذة وذات مال خاصة بعد تربعه على كرسي القيادة في السلطة حيث قام السارد بتقديم صورة مُلتحمة بالسياق الروائي الذي بنى قوام الشُخوص فيها ورسم تضاريس الأحداث أولا بأول، لتُمثل بذلك هذه الشخصية "غياب القيم. الإنسانية وغلبة النزعة الحيوانية على الناس مما يعمق مأساة الإنسان في هذه المدينة الظالمة التي تبتلع الجميع"[47]، فهو لا يسعى إلاَّ لخدمة مصالحه وزيادة هيمنته على حساب سكان حارة الحفرة البسطاء، ورغم ماضيه الأسود (عميل وابن حركي زمن الثورة) إلاَّ أننا نجده قد أصبح بعد الثورة يملك المال والسلطة، مُستغلا إياها في غير موضعها كاحتقار الناس وإذلالهم والاعتداء عليهم دون وجه حق، وذلك في قوله مثلا: "هذا أنت (عبد الرحيم)...؟ أدلكني جيدا لا تترك ذرة غبار واحدة...هل تعرف أن هذا الغُبار الذي يلتصق بنا يأتينا من أحيائكم الفقيرة؟ يجب أن نطالب الدولة بنصب سور بيننا وبينكم..."[48]، فهذا دليل صريح من فمه على طبيعة تكوينه المنحط والذي يُنم عن حقده وجشعه تجاه سكان حارة الحُفرة كشخصية (صالح الرصاصة) الذي يُكنُّ له العداء والضغينة لأسباب تاريخية تعود بجذورها إلى أيام الثورة

التحريرية، حيث قام رفقة بعض المجاهدين بإعدام والده الحركي، فيقول مُهددا وكُلُّه حقد: "ومازال هو غُصَّة في القلب لابد أن يدفع الثمن"[49]، ومن خلال المواقف المتوالية التي تدل على طبيعة شخصية (امحمد املمد) الانتقامية والمستغِلَّة، نصل إلى تبنيها مبدأ إذلال الرعية التي وصل إلى السلطة بواسطتها ورغم العقد الائتماني الذي منحوه إياه وبموجبه وصل إلى ما هو عليه نجده يخرق هذا العقد، لتحدُث الهوة بينه وبين رعيته الممثلة هنا في حارة الحفرة بسبب ممارساته السلطوية ضدَّهم، كقوله مثلا مُتحديا إياهم: "...أولاد الكلب سأشتريكم جميعا بمالي...الكل تحت جبروتي...أنتم وهذا الوطن الذي ضحَّيتم من أجله..."[50]، ففي هذه اللحظة السردية نجد تمادي (امحمد املمد) في غروره تجاه رعيته ليفقدوا بسبب ممارساته القهرية والاستغلالية وبعد صبر طويل الأمل في التغيير نحو الأفضل وحتى في إمكانية التفكير في اقتراح بديل والخروج من هذا المـــأزق ليثوروا في وجهه في الأخير مُطالبين بتحسين ظروفهم وأحوالهم فتقول (الجازية) واصفة الوضع والناس ثائرين: "حين دخلنا حارة الحُفرة وجدناها قد انقلبت رأسا على عقب ...الناس يتجمعون هنا وهناك...الشباب يحملون العصي والحجارة ...الدخان يملأ الفضاء...سخط يَتَثَعبنُ على ملامح الجميع...سيارة لشرطة مكافحة الشغب ...بعض أفراد الشرطة ما زالوا يقفون بالقرب منها..."[51].

لنصل إلى أن شخصية رئيس البلدية (امحمد املمد) لم تكن تُمثِّل كمسؤول إلاَّ نفسها ومصالحها ولم يكن يَمتَثِل في سلوكاته ومواقفه لمقتضيات النظام السياسي الواجب عليه تطبيقه، لتتشكل شخصيته في صورة سطوة وظلم للرعية وخروج عن العدل وتكريس للشرِّ.

كما أن في هذه الرواية وعي بقيمة الشخصيات الأساسية منها والفرعية،

ومعناه أن كافة الشخصيات هنا لا تقلُّ أهمية إحداها على الأخرى كونها تعكس بُعدا فنيا روائيا له قيمة كأن يجعل السارد الشخصية غائبة على مستوى الخطاب السردي –غائبة جسديا– لا نعرف ما يحصل لها إلاَّ على لسان غيرها كشخصية (ذياب) الصحفي، حيث عمدَ السارد إلى تغييبه عُنوة بأن أقام في الجزائر العاصمة البعيدة عن مكان الأحداث في هذه الرواية، ليشتغل هناك صحفيا بجريدة الشروق اليومي كاشفا من خلالها زيف الواقع مُعريا حقيقته، وهكذا أُعتُمد السرد مع هذه الشخصية وما يحيط بها من أحداث باستخدام ضمير الغائب [هــو] على لسان الشخصيات الأخرى، حيث يقول (صالح الرصاصة) وكلُّه فرح: "وأعادتني (الجازية) إلى الواقع وهي تفتح أمامي جريدة الشروق اليومي وقد توسطها موضوع يعلوه عنوان بخط كبير:

'بارون التهريب والمخدرات'

تصفحت عناوينه على عجل:

*(امحمد املمد) يتحايل على الضرائب..رشاوي بالملايين....شبكة مخدرات مغاربية .. وقد ذَيَّل الموضوع باسم كاتب **م . ذياب**

صِحتُ فيها فرحا: إنه (ذياب)...هاهو أخيرا يضرب ضربته...انتهى (امحمد املمد) إلى الأبد"[52].

ليكون هنا (ذياب) رغم غيابه، صوت المجتمع الواجب عليه تقويم من حاد بقلمه ليرتدع مَن بعده ويستقيم.

كما نجد شخصية (منير) المثقف المهمش التي تمثل رمز مُكثَّف لغياب العدل وتفشي لظلم والإحساس بالهزيمة لتتراكم عليه الإساءات، وهذه "إشارة إلى عدم التكافؤ الاجتماعي في الحياة وغالبا ما تؤدي هذه المفارقة إلى

النزاع ومن ثم الانفصال"[53]، لتتوزع هذه الشخصية بين الواقع والحلم، بين الخوف والتحدي، بين الندم والرغبة، فهي الأخرى تسعى لتحقيق واقع العدل في حارة الحفرة لكن هذا الواقع المرجو يبقى بالنسبة إليه مجرد حُلم، لأنها حاولت التغيير بالطرق السلمية عن طريق فتح باب الحوار وخلق قناة تواصل مع رئيس بلديتهم (امحمد املمد)، حيث يقول مُحاولا تهدئة الأوضاع وحلِّها بالطرق السلمية: "إلتَمَّ حولي الجميع وقد زاد غضبهم وسخطهم... هدَّأتُ من روعهم...شكَّلنا لجنة تتحدث باسم الحي أمام الجهات الرسمية وأمام العدالة وأمرت الباقي بالانصراف"[54]، لتكون انتفاضة سكان حارة الحفرة محاولة لقلب نظام (امحمد املمد) التهميشي، كما كان لتهدئة (منير) تأثير كبير في إبطال مفعول الفوضى التي صاحبت انتفاضة التغيير، ومن هذا المنطلق سعى إلى تحريك خاص يخضع إلى تحكيم العقل والقانون أولا دون اللجوء إلى العُنف والفوضى، وذلك بتحملهم المسؤولية وتكليف أحد عُقلائهم بمهمة إسماع كلمتهم إلى الجهة المسؤولة مباشرة.

لتتضح هنا معالم البرنامج السردي في اللحظة التي أدرك فيها سكان حارة الحفرة التهميش واللامبالاة التي يعيشون فيها بعد ملاحظتهم للنتائج السلبية التي أفرزتها سياسة رئيس بلديتهم (امحمد املمد) تُجاههم، خاصة بعد مُساومته إياهم وتهديدهم بالانتقام في حال الرفض، حيث يقول مُخاطبا طبيبه الخاص: "لو زوَّجوني الحُلوة لفرشت لهم حارة الحفرة ذهبا، ولكنهم عاندوا ودفعوني إلى اغتصابها...ثم هامت على وجهها تبيع جسدها مومسا على قارعات الطرق...ولو زوجوني (الجازية) لفرشت لهم أرض حارة الحفرة وسمائها دُرًّا وجواهر...ولكن لأتزوجنها أو لأغتصبنها لتكون عبرة للجميع"[55]، ليفضي هذا الوضع في الأخير إلى تقييم سلبي حرَّكه سكان حارة

الحفرة ضد (امحمد املمد) للقيام ببرنامج سردي مُضاد هدَفُهُ تحريك الأوضاع وشدّ انتباه مسؤولهم إليهم، من أجل الدخول في اتصال معهم والاستماع لانشغالاتهم التي من بينها ترسيخ قيم العدل التي يجب أن يحتكم إليها في تسييره السياسي، ليتدخل (منير) الذي يمثل الطبقة المثقفة هنا بحكمته ساعيا إلى ضرورة اختيار مبعوث يتحدث باسم الحارة يكون مُفاوضا على أساس المشاورة والتحاور لإرساء قيم العدل والإنصاف في حلِّ المشاكل العالقة التي تعترض حارة الحفرة وتهمِّشها، ليقتنعوا برأيه في الأخير ويفعلوا ما نصحهم به.

ومنه فاتخاذ سكان حارة الحفرة قرارهم سواء الجماعي أو الفردي بالمواجهة والتغيير بكافة الأساليب كان آخر حل لهم بعد غلق (امحمد املمد) كل قنوات الحوار معهم، لتكون المواجهة الجماعية ممثلة في انتفاضة وثورة السكان ضد بيروقراطيته التي مثلت هنا "منطق العصر الذي يفرض سلطته ويصبغ العلاقات بطابعها النفعي"[56]، فنجده دائم السعي لشراء ذمم الناس ومساومتهم باسم ماله وسلطته ليندمج ضمن نطاق برنامجه السردي عدَّة شخصيات تتميز بنفس طبائعه كشخصية العجوز (عكَّة) الانتهازية التي تفعل أي شيء مقابل المال كالسحر والدجل، ليسخِّرها (امحمد املمد) في خدمة أغراضه ومصالحه، لتدخل بذلك في صراعات كثيرة مع شخصيات الرواية كعائلة (صالح الرصاصة)، حيث يقول الراوي واصفا ردَّة فعل (الجازية) تجاه العجوز (عكَّة): " وتغيَّرت ملامح (الجازية) غضبا وهي تُعالج بعض جراح أمها وأدركت أنها ضاقت ذرعا بالعجوز (عكَّة) ولعلها ستسيء إليها ... وقرأت العجوز (عكَّة) ذلك وأنا أَحُثُّها في رفق على مُغادرة البيت..."[57]، كما نجد شخصيات ساعدت (أمحمد) في إنجاح برنامجه السردي بعد وعود

وإغراءات قُدِّمت لهم من طرفه كشخصية (عزَيِّز) ربيب العجوز (عكَّة)، والتي نجد إحساسها بالذنب قد جاء متأخِّرا بعد مساعدته (امحمد املمد) في استدراج (عبلة الحلوة) وتخديرها ليغتصبها هذا الأخير، حيث يقول مُعترفا لـــ(منير): "ما عساني أقول لك؟ لعلك جئت في الوقت المناسب ولو لم تحضر إليَّ لقصدتك...لقد صار ما أحمله في نفسي ثقلا رهيبا... وسكت يَلم أطراف حديثه... هذا الدكان هو للحاج (امحمد)...وما أنا إلاَّ أحد خدمه...وهو لم يُقمه هاهنا إلاَّ لاصطياد من يشاء من الغيد الكواعب...وفعلا نفَّذت له بغباء ما يريد ثم لم أحصل على شيء..."[58]، لنجد في هذا المقطع السردي تورط (عزيِّز) في فعل الإغواء وأدرك بعد فوات الأوان أنه خُدع ليسعى جاهدا إلى التطهير والتخلص من الذنب عن طريق الاعتراف بالجرم وكشف الحقيقة، ليكون موقفه هذا عبارة عن "وسيلة من التعبير الرمزي لحالة الاستلاب الكلي والضياع الكامل الذي تعيشه الشخصية بعدما لم تعد ترى في وجودها ما يمكن أن يميزها عن هذا الكم المهمل من التراب"[59]، ليكون الشعور بتأنيب الضمير نفسيا وتمزقا داخليا، لتتوق بسببه هذه الشخصية إلى الوقوف على حقيقة الأمر وكشفها لكي تُعيد لنفسها كرامتها المفقودة واستقرارها المفارق لها، وليكون صوته هو "صوت الضمير الذي يحاسبه على ما صنعه بنفسه"[60]، وقبل أن يخرج هذا الصوت إلى الوجود نجده قد كُبتَ إلى الأبد إذ وُجدَ (عزيِّز) ميتا في محله والغموض يكتنف سبب وفاته: هل هو انتحر أم قُتل؟، يقول (منير) وكله شك: "قتلوا (عزيز)... أو ...لعله...لست أدري...سكت لحظة وواصل: وجد مختنقا في دكانه بفعل تسرب الغاز من قارورة يستعملها للتدفئة"[61].

فقرار المواجهة مرهون بالجهة التي ستدخل في تشكيل كفاءة سكان حارة

الحفرة الذين أسسوا أنفسهم كفاعلين في برنامج سردي مهمته التغيير في وقت أدرك الجميع اتساع الهوة بينهم وبين مسؤوليهم خاصة (امحمد املمد) رئيس البلدية، تقول (الجازية) واصفة حال سكان حارة الحفرة: "أخبريني أن حارة الحفرة أيضا تعيش مخاضا عسيرا...أبناؤها يُعدُّون لتمزيق الشرنقة الحالكة مهما كان الثمن..."[62]، فهنا يتمظهر جليا وجوب القيام بالفعل والرغبة في التغيير عبر ملفوظات عدة وردت في الرواية منها: (كل السكان كانوا يعيشون غليانا رهيبا/ حارة الحفرة أيضا تعيش مخاضا عسيرا/ الجميع بقي ينظر إليه من بعيد في ازدراء/ وحين قُذِفَت صخرة من يد فتى نحو السيارة أدرك (أمحمد أملمد) أن الأمر حامض فلملم خيبته ورحل/ شيء واحد يوقف غطرسته...رصاصة في الرأس/ لن أتركك يا (منير) تقتله سأقتله أنا...أنا أولى بذلك).

يمتلك سكان حارة الحفرة الكفاءة اللازمة من أجل تحيين مشروعهم المضاد رغم عدم تكافؤ قوى الجانبين، بمعنى أن ميزان قوة (امحمد املمد) أكبر من ميزان قوة حارة الحفرة لامتلاكه أهلية النفوذ التي هي في غير صالح سكان حارة الحفرة، ليستعدوا ويبرمجوا انطلاقا من هذا السبب لكيفية مواجهة الفساد والقضاء عليه، أولا باستعمال الوسائل السلمية والقانونية أو اللجوء إلى العُنف إذا لم ينفع معه التحاور، ليصلوا في الأخير إلى ضرورة إزالته من الوجود كحلٍّ أخير يخرجهم من دائرة التهميش والفوضى بعد فشلهم في إقناعه بمطالبهم الشرعية، فنجده يقول وكله غضب: "ما الذي يريده هؤلاء السفلة الرعاع؟ مازالوا مستمرين في عنادهم رغم كل شيء...لقد أثبتَت لهم الأيام أنني الأعظم والأكفأ...وأنني قادر على شرائهم بما يملكون من أكواخ وأثاث..."[63]، فموقفه هذا يثبت أهلية سكان حارة الحفرة في الثورة عليه،

لتُطرح القوة المــادية كبديل للحوار والمناقشة والتي سيلجأ إليهــا كل مـــن (منير) و(ذيــاب) و(الجــازية) و(عبــلة الحــلوة) في الأخير لمواجهة رمز الفساد (امحمد املمد) وقتلــه، يقــول الراوي: " يــا (الجازية) ...بلغ القلبَ العفن...انتفضي...حشَاشَة الروح ترتعش...سويداء القلب تختنق ...اقتليه...اشحذي الخنجر المسموم واقتليه ..."[64].

لتبدأ المواجهة بمجرد انطلاق الحفل الساهر الذي نظمه (امحمد املمد)، إذ بمجرد قيام هذا الأخير بالرقص على إيقاع الموسيقى الصاخبة وهو مخمور تقدمت منه (الجازية) بعد اتخاذ قرارها النهائي وكلها إصرار على القضاء على الفساد الممثل هنا في (امحمد املمد)، فيقول الراوي حاثًّا وواصفا لموقفها: "اجري يا(الجازية)...مزّقي فستان الحداد...البسي فُستان الفرح... يلمع الخنجر في يمينك...في ذراعك النحيفة...تزداد سرعتك...لابدّ من قتله ...حارة الحفرة تنتظر أيتها الفحلة...يا سلالة الفحول...اقتليه ...اغسلي العار ...لا يغسل العار إلاَّ الدماء..."[65].

ليُنِمَّ موقف (الجازية) هنا على "إصرارها على التحدي والاعتزاز بالذات تمهيدا للارتباط بالآخــر"[66]، لأن الآخر هنا هو (ذياب) رمز العدل والحق الذي انتظرته طويلا.

لنصل إلى أن جهة القدرة على الفعل أعطت الضوء الأخضر لــ(لجازية) من أجل إتمام المواجهة واختيار اللحظة المناسبة، لتقع عليها عدَّة ملفوظات سردية وقعا إيجابيا كقول الراوي: (انتفضي حارة الحفرة/ الدم وحده قادر على غسل العار/ اجري يا(الجازية)/ ازرعيه فرحا في سويداء حارة الحفرة اجتثي منها نكد الفراعنة والدايات/ خذي بالثأر/ لا تتركي الخنزير يقطف ثمرتها/ أسرعي أيتها المهرة العربية/ لا تدعيهم يسبقون للشرف ...)،

لتستغل وتستثمر الفرصة المناسبة في تنفيذ قرارها والانقضاض على (أمحمد أملمد) قصد قتله وتخليص حارة الحفرة من شرِّه، يقول الراوي واصفا المشهد: "...على مرمى حجر تقفين مهرة جامحة...تلتصق الشقراء به... يعدو (منير)...يسبقه (ذياب)...تحدق فيك عيون البنادق شُزَّرًا ...تشحذين القلب ...تشحذين الخنجر، تدفعينه نحو القلب...تغرسينه فيه يتهاوى نحوك جثة هامدة...قبل أن يصل إلى الأرض...ترفعين بصرك...تلمحين الشقراء تغرس خنجرها في كبده... تتأملينها...يهرع (منير)...يهرع (ذياب)...تصفق حارة الحفرة..."[67]، لتتجاوز حارة الحفرة بفضلها هذه العقبة الكؤود وتتحول في الأخير إلى حارة الربوة.

ومن خلال تركيزنا على الملفوظات السردية التي وردت في هذه الرواية نجدها متضمنة بين طياتها برنامجين سرديين: الأول تبناه سكان حارة الحفرة ويتحدد دوره في وجوب إحداث التغيير وبأي وسيلة والثاني تبناه (أمحمد أملمد) وحاشيته التي اشتراها بماله، ويتحدد في محاولته إخضاع سكان حارة الحفرة تحت سيطرته ومن ثم إذلالهم واستغلالهم.

لنصل إلى أن البرنامج السردي الأول ذو طابع إلزامي (ضرورة التغيير)، في حين البرنامج السردي الثاني نجده مُتحررا من العقد الإلزامي المطلوب تنفيذه كالآتي:

-العقد الإلزامي/إحراز العدل والديمقراطية = وجوب الفعل / وجوب التغيير = الرغبة في الفعل/ الرغبة في التغيير.

من هنا نلاحظ امتلاك سكان حارة الحفرة لأهلية التغيير واتخاذ القرار الموجه أساسا إلى (امحمد املمد) الذي تسبب في تهميش حارة الحفرة واستغلالها بخروجه عن مبادئ العدل والمساواة في الحقوق وذلك واضح في

قوله مهددا إياهم ومتوعدا: "لن أهدأ حتى أشتريهم جميعا...لن أهدأ حتى أذبحهم واحدا واحدا ...سأتصل بالوزارة...بسي سليمان...سأحصل على قرار من فوق يثبت أن حارة الحفرة غير صحية وغير لائقة للسكن وبقوة القانون سأُهجِّرهم جميعا..."[68]، فهذا الرد يحمل حالة تحول ستفرز بدورها البرنامج السردي الأساسي الخاص بالمواجهة لأن البرنامج الأول نتج عن الفعل التحويلي الذي قام به (منير) بإيقافه جموع المتظاهرين وحثهم على ضرورة ترك العنف وتشكيل لجنة باسم الحي تتكلم نيابة عنهم باستعمال الطرق القانونية وذلك في قوله: "إلتَمَّ حولي الجميع وقد زاد غضبهم وسخطهم... هَدَّأتُ روعهم...شكَّلنا لجنة تتحدث باسم الحي أمام الجهات الرسمية وأمام العدالة وأَمَرتُ الباقي بالانصراف"[69]، ليولِّد فشل تحويل طريقة (امحمد املمد) في إدارة شؤون رعيته وانتصابه مُعارضا لهم، إلى حالة جديدة تبنتها شخصيات الرواية كـــ(الجازية) و(منير) و(ذياب) و(عبلة الحلوة) والذين التزموا بعقد يُقِرُّ بضرورة القضاء على (أمحمد أملمد) كحل نهائي وأخير لإقامة عالم جميل يسوده العدل على أنقاض مُخلَّفاته، حيث يقول الراوي : "وحين أشرقت شمس الصباح كان الجميع يشاركون في عيد حارة الربوة..."[70].

إن التشكيل الذي يعمل على تجلية المكون السردي قدَّم لنا مشاهد بدأت بحالة من الانغلاق والانسداد لتتوسع تدريجيا، كونه "من ضمن التجليات النصية الدالة على الثبات مسألة انفجار الذوات وانزلاقها من وضع إلى آخر"[71]، لنجد الحالة الأولى مرتبطة بتمزق الوشائج التي تحكم الراعي (امحمد املمد) : بالرعية (سكان حارة الحفرة)، لتكون مبعثا لخلق جو من الاضطراب والموت كموت (عبد الرحيم)، (صلاح الدين)، (المفتش معرفة)،

(عزَيِّز) (أُمًّا علجية)، في حين الحالة الثانية متناقضة تماما مع الحالة الأولى، كونها تبعث على الحياة والانشراح مع زوال الشر ليُعبِّر عليها باستمرار الحياة رغم الموت، فتقول (الجازية) لوالدها (صالح الرصاصة): "هل تعلم؟ (وهيبة) أنجبت طفلا. ووجدت نفسي أصرخ من أعماقي: (سالم العلواني) ... (سالم) البطل...ما أعظمك يا رب"[72] .

فولادة (وهيبة) – زوجة (عبد الرحيم) الذي اغتيل غدرا – تمثل هنا رمزا لاستمرار الحياة مع هذا الطفل الذي سمي باسم سالم تبركا على اسم والد جده (صالح الرصاصة) الشهيد.

الخلاصة:

لنصل في الأخير إلى أن الراوي في رواية راس المحنة قدَّم شخوصه وحرَّكها بطريقة " لا يبرزون فيها كأشياء بل كواقع مُتحرِّك قد يذوب البطل الفردي فيها، لكن هذا الذوبان ذوبان اجتماعي في روح الجماعة"[73]، والتي مثَّلها سكان حارة الحفرة الذين أسهموا في صنع الدلالة إسهاما فعالا، لتقوم بحركة نَجَمَ عنها احتكاكات عديدة قدَّمت لنا نموذجا بالغ القسوة ممثلا في حالة حارة الحفرة التي صوَّرت من خلاله التشوهات المادية والروحية لإنسان ما بعد الاستقلال علــى الصعيد الفــردي (أمحمــد أملمد)، (مدير المشفى) و(محافظ الشرطة) ... بل ومتجاوزة ذلك بطرحها وعرضها على المستوى الجماعي، لـــ"تتشكل البنية الدلالية للخطاب السردي من نسيج الرؤى التي تصدر عن الشخصيات بوصفها فواعل في بنية الخطاب"[74]، ولتضطلع آلية السرد بالدور الرئيسي في رصد تفاصيل الأحداث التي شكَّلت السياسة والإيديولوجيا في المجتمع إيقاعها من اضطراب وتمرد وعودة للتوازن، ومستخدمة "كل الطاقات الفنية المتاحة لتقوية البعد الدرامي وتعميق

الوعي بالذات والواقع المعيش، وكذا تأكيد الهوية من خلال الانكسارات الاجتماعية والثقافية والسياسية لواقع الشخصية الروائية"[75] المرتبطة في برنامجها السردي بعلاقات الطموح والمغامرة التي تتوق إلى تحقيقها.

الهوامش والمراجع

1-محمد الناصر العجيمي: في الخطاب السردي (نظرية غريماس)، الدار العربية للكتاب، تونس، 1993، ص35.

2-السعيد بوطاجين: الاشتغال العاملي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2000، ص19.

3-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ط2، ص13.

4-المصدر نفسه، ص15.

5-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2003، ص250.

6-عبد الله حمادي: مساءلات في الفكر والأدب (محاضرات)، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، ص428.

7-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص27.

8-بشير بويجرة محمد: الشخصية في الرواية الجزائرية "1970-1983"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص32.

9-محمد أحمد المسعودي: (الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية)، علامات في النقد، جزء 53، مجلد 14، سبتمبر 2004، النادي الأدبي الثقافي، جدة، السعودية، ص577.

10-المرجع نفسه، ص577.

11-المرجع نفسه، ص.577.

12-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، مرجع سبق ذكره، ص250.
13-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص53..
14-صلاح فضل: تحليل شعرية السرد، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 2002، ص111.
15-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص ص 71-72.
16-صلاح فضل: تحليل شعرية السرد، مرجع سبق ذكره، ص226.
17-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص54.
18-سمير المرزوقي: مدخل إلى نظرية القصة، الدار التونسية للنشر، تونس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص59.
19-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص24.
20-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، مصدر سبق ذكره، ص250.
21-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص35.
22-مجموعة باحثين: دفاتر فلسفية (الطبيعة والثقافة)، تر: محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء المغرب، 1991، ص21.
23- عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص29.
24-المصدر نفسه، ص35.
25-سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي (من أجل وعي جديد بالتراث)، رؤية للنشر والتوزيع، المغرب، 2006، ص156.
26-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص70.

27-المصدر نفسه، ص93.

28-محمد أحمد المسعودي: (الخطاب ودوره في تشكيل الشخصية الروائية)، مرجع سبق ذكره، ص579.

29-المرجع نفسه، ص579.

30-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص205.

31-المصدر نفسه، ص35.

32-المصدر نفسه، ص63.

33-صلاح فضل: أشكال التخيل (من فتات الأدب والنقد)، الشركة المصرية العالمية للنشر لونجمان، القاهرة، مصر، 1996، ص31.

34-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص38.

35-المصدر نفسه، ص238.

36-المصدر نفسه، ص239.

37-عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة، مرجع سبق ذكره، ص253.

38-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص237.

39-تزفيتان تودوروف: مفاهيم سردية، تر: عبد الرحمن مزيان، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005، ص40.

40-عبد الحميد هيمة: علامات في الإبداع الجزائري، ج2، رابطة أهل القلم، سطيف، الجزائر، ط2، 2006، ص97.

41-عبد الفتاح كليطو: الأدب والغرابة (دراسات بنيوية في الأدب العربي)، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط3، 1997، ص66.

42-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص37.

43-المصدر نفسه، ص36.

44-المصدر نفسه، ص37.

45-المصدر نفسه، ص53.

46-مصطفى فاسي: دراسات في الرواية الجزائرية، دار القصبة للنشر، بن عكنون، الجزائر، (د.ت)، ص43.

47-عبد الحميد هيمة: علامات في الإبداع الجزائري، مرجع سبق ذكره، ص113.

48-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص88.

49-المصدر نفسه، ص93.

50-المصدر نفسه، ص90.

51-المصدر نفسه، ص248.

52-المصدر نفسه، ص255.

53-أمبرتو إيكو: ست نزهات في غابة السرد، تر: سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، 2005، ص202.

54-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص248.

55-المصدر نفسه، ص249.

57-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص229.

58-المصدر نفسه، ص219.

59-عبد الله إبراهيم: تحليل النصوص الأدبية (قراءة نقدية في السرد والشعر)، دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس، ليبيا، 1998، ص23.

60-صلاح فضل: تحليل شعرية السرد، مرجع سبق ذكره، ص116.

61-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص226.
62-المصدر نفسه، ص226.
63-المصدر نفسه، ص248.
64-المصدر نفسه، ص259.
65-المصدر نفسه، ص262.
66-صلاح فضل: تحليل شعرية السرد، مرجع سبق ذكره، ص168.
67-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص263.
68-المصدر نفسه، ص249.
69-المصدر نفسه، ص248.
70-المصدر نفسه، ص264.
71-السعيد بوطاجين: السرد ووهم المرجع (مقاربات في النص الجزائري الحديث)، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2005، ص168.
72-عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص256.
73-عمار يزلي: (مقاربة سوسيو بنيوية: الصورة الساخرة في الرواية الجزائرية)، الاغتراب الأدبي، عدد47، 2001، مؤسسة الرافد، لندن، ص27.
74-عبد الله إبراهيم: تحليل النصوص الأدبية (قراءة نقدية في السرد والشعر)، مرجع سبق ذكره، ص103.
75-عبد الحميد هيمة: علامات في الإبداع الجزائري، مرجع سبق ذكره، ص111.